الثقافة الجديدة ، ثقافة الشباب

لندن ، من ت.ر. فايفل :

من الظواهر التي استرعت كثيرا من الانتباه في بريطانيا في السنوات العشر الاخيرة ، المكانة البارزة غير المألوفة التي يحتلها المثقفون الشبان — بالمعنى الواسع لهذا الاصطلاح — في كافة ضروب مجالات الحياة البريطانية . والحياة الثقافية ، بطبيعة الحال ، تتأثر ، بدورها ، بالنزعات الجديدة ، ولم يكن بالامر المستغرب ان تتغير الطليعة تغيرا عميق الاثر بعد انقلاب خطير كذلك الذي جرته الحرب الاخيرة . ولكن حتى في هذا الضوء ، فان النحو الذي شق به الرعيل الجديد، ونعني بهم شبانا في العقد الثالث او في بواكير العقد الرابع من العمر ، طريقهم مباشرة الى منزلة الصدارة في الحياة الثقافية البريطانية يبدو بالفعل امرا لم يسبق له نظير. ولن تجد الامر كذلك اذا انت نظرت فحسب الى مجال احدث الابحاث العلمية، حيث كان التغيير متوقعا كل التوقع ، بل ستجده ايضا اذا نظرت الى المسرح الانكليزي منذ « اقتحام » جون اوزبورن له ، او الى دور القيادة الذي يضطلع به جيل جديد في التلفزيون والصحافة، وفي الادب وتأليف الدراسات الاجتماعية والتاريخية الناجحة . الام سيدوم هذا الحال ؟ ذلك امر يشق تقديره ، ولكني اعتقد انه يمكن ابداء ملاحظتين : فربما امكن فهم الدور الهام الذي يؤديه الشباب في الحياة الثقافية البريطانية ان نظرنا اليه ضمن اطار اعم ، هو الانتقال من المجتمع البورجوازي الى المجتمع الحديث الذي يمكن ان نسميه « مجتمع البحبوحة » او اي اسم تقليدي آخر يوحي بسماته البنائية الجديدة . ثانيا، ان هذا التحول الاجتماعي يحتمل ان يكون قد بلغ في بريطانيا مدى ابعد منه في اي بلد اوربي آخر . وقبل النظر في اثر ذلك في الحياة الثقافية البريطانية ، يجدر بنا ان نستطرد بايجاز في هاتين القضيتين .

جاءت عبارة « مجتمع البحبوحة » من امريكا، اذ صاغها الاستاذ غولبريث ، وهي تستعمل في الاشارة الى ذلك الضرب من المجتمع الذي رأيناه ينمو في الولايات المتحدة قبل نموه في اوربا بقليل. ولكن قد يكون بوسعنا ، واوربا الغربية تقتفي اثر الولايات المتحدة الآن ، ان نرى بوضوح اي مجتمع نخلفه الآن وراءنا ومدى التغير الحاسم المتضمن في هذه العملية . ذلك بان مجتمع الامس البورجوازي الاوربي ، وان كان رأسماليا ، فقد كان ايضا من حيث الماهية منقسما الى طبقات ومبنيا على الانفصال الطبقي . وكانت الطبقة الوسطى العليا المتصلبة ، التي انبثقت من الثورة الفرنسية والانقلاب الصناعي وساوت بين مصالحها ومصالح الدولة القومية ، اكبر عددا بكثير من الجماعات الارستقراطية الحاكمة السابقة. ولكن حتى بالرغم من هذا الاعتبار ، فانها لم تكن اكثر من اقلية لم تتجاوز حتى في اوربا الغربية المتقدمة ما بين ١٥ و ٢٠ بالمائة من تعداد الامة ، وظلت طبقة العمال والفلاحين التي كانت تؤلف السواد الاعظم من الامة ، عهدا طويلا لا تنال الا قسطا بالغ الضآلة من حضارة الامة ، سواء من الناحية الثقافية او في شتى اساليب الاستهلاك المادي . وثمة امران آخران يجدر بنا ان نذكرهما دائما ، هما ان هذا الانفصال الطبقي في المجتمع البورجوازي لبث الى حد قريب يدعمه جيش من خدم البيوت ، وان البناء الكلي للمجتمع البورجوازي كان ينطوي ايضا على قدر كبير من ممارسة السلطة ، من سلطة متجسدة في ممثلي الحكومة والقانون والكنائس ، وسلطة اصحاب العمل والمدرسين والآباء في حياة الاسرة .

هذا المجتمع البورجوازي الاوربي ، هو الذي شهد ميلاد كهول اليوم ، وهو الذي يمر الآن بمرحلة الاحتضار ، وهو الذي نحاه عن مكانه اندفاع مجتمع البحبوحة الجديد . وكان العامل الحاسم في التغير ، بطبيعة الحال ، هو التقدم الفني الذي اتاح استهلاكا للسلع الاستهلاكية على نطاق واسع لم يسبق

له مثيل . والحق انه قد اصبح حتما ، في مجتمع البحبوحة الحالي ، على كل مواطن ، كل رجل وامرأة وطفل ، ان يستهلك الى اقصى مدى حتى يتسنى لعجلات الآلات المتحركة ان تستمر في الدوران . وهذه هي النقطة الفاصلة : فحيال هذا الاندفاع نحو تغيير مجتمعنا الى سوق ضخمة ، فان النظام القديم للطبقة الوسطى المستأثرة ، القائم على عوامل كالبيوت او الشقق الباذخة والعدد الوفير من الخدم والحشم ، كان عليه بكل بساطة ان ينهار .

ان صورة عملية التسوية الاجتماعية الجارية الآن في اوربا ، بتوفير سيارات منتجة على نطاق اضخم وآلات منزلية وثياب وافلام وبرامج تلفزيونية معدة للعرض على جماهير غفيرة ، لهي صورة مألوفة ولا حاجة بنا الى الاطناب فيها . ولكن ثمة وجها آخر لهذا التغير لم ينل بعد اعتبارا كافيا . فجنبا الى جنب مع اضمحلال بناء المجتمع البورجوازي ، فان نسق السلطة الاخلاقية باسره ، القائم على اعمدة الدولة البورجوازية والكنيسة والمدرسة والاسرة ، آخذ ايضا في الاضمحلال ، وربما كان ذلك امرا لا مفر منه . وعوضا عنه ، نستطيع ان نسمع في مجتمع البحبوحة الجديد النامي اصواتا جديدة للسلطة ، كاصوات رجال الاعلان ، ومصممي الازياء ، وهي تصل بخاصة الى آذان الجيل الفتي . كما ان دينامية مجتمع البحبوحة نفسه تباشر سلطتها في اجتذاب النساء المتزوجات والاحداث الى الاستخدام . والتحرر الاقتصادي للنسوة امر الفناه بالفعل ؛ اما تحرر الاحداث الاقرب عهدا فينطوي على اهمية خاصة في تشكيل المجتمع المعاصر . فقد خلق سوقا تجارية خاصة للاحداث ، وثقافة تخصهم ، بحيث سيتعين علينا الآن ، بدلا من ان نتحدث ، كما اعتدنا ، عن فئتين رئيسيتين للاعمار ، الاطفال والراشدين ، ان نتحدث في مجتمع البحبوحة عن ثلاث : الاطفال، فالاحداث بثقافتهم الخاصة بهم ، فالراشدين من بعدهم . ويباشر التغير التقنولوجي المتواصل حاليا ، يباشر بطريق آخر سلطة على الجيل الحديث ، بخلق طلب لا يفتأ يتزايد على العلماء والفنيين ورجال الادارة ، وبذلك لا يفتأ يجتذب المزيد من الاحداث الى صراع ومنافسة على التعليم العالي الذي يعتبرونه ضروريا .

ويستطيع زائر لندن ان يتبين هذا التغير مجلوا في دلالات مرئية. فلندن الامس البورجوازية، ببيوت طبقتها الوسطى التي تضم ثماني غرف او عشرا او اثنتي عشرة ، ومن الجهة الاخرى بشوارع الاحياء الفقيرة المقبضة ، لا تزال قائمة — في جزء منها على الاقل ؛ ولكن ما بقي من تلك البيوت القديمة التي كانت تقطن فيها الطبقة الوسطى اصبح اليوم مقسما، تعمره عائلات كثيرة، في حين نجد الطبقة العاملة هي الآن في اوج حركة خروج جماعي من الاحياء البائسة الى مناطق اسكان جديدة في الضواحي. وربما كانت هناك اسباب متباينة لهذا التحول الاجتماعي الهائل منذ الحرب، ولكن ثمة اسباب قليلة بارزة الاهمية .

فقد كان المجتمع مقسما في بريطانيا قسمة ابلغ منها في سائر الدول الاوربية ، الى طبقتين عليا وسفلى ، كانتا اقرب الى ان تكونا امتين مختلفتين ، على حد وصف دزرائيلي . ولكن سلطان الطبقة العليا على بقية الامة ظل اجيالا طوالا وثيق الصلة بثروة الامبراطورية وجبروتها ونسقها الاخلاقي . وهنا جاء التغير مباغتا تماما ، فمن الصعب بالفعل ان نتصور انه في طور تلمذة المواطنين الانكليز الذين يناهزون اليوم العقد السادس من عمرهم، كان قرابة ربع سكان المعمورة لا يزال خاضعا لحكومة لندن . كما ان التغير تم بصورة سلمية في جوهره ، واجري بحذق جدير بالتقدير . ولكن حتى بالرغم من هذا ، فانه بانحلال النفوذ الاستعماري مؤخرا ، فقد الكيان الارستقراطي للطبقة العليا القدر الاكبر من سلطانه على حين غرة ، ولذلك نشهد الآن تغييرا هائلا في وجهة النظر . ويسهّل هذا التطور الى وجهة نظر مجتمع البحبوحة عامل آخر ، هو ان بريطانيا بحكم سبقها في الانقلاب الصناعي ظلت امدا طويلا تفتقر الى التأثير المحافظ الذي تمارسة طبقة من المزارعين، كما انها تفتقر الى ذلك التأثير المحافظ الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية — او الاحزاب الماركسية — في البلدان الاوربية الاخرى . وفي مقابل ذلك ، ظلت بريطانيا تنعم

اجلا مديدا بصحافة هي اوسع صحافة انتشارا في اوربا ، وباعرق واضخم اجهزة الاعلان ، وهذان عاملان هامان للتغير في مجتمع البحبوحة ، في حين ان اللغة الانكليزية التي تشترك بها مع امريكا تعرض بريطانيا اليوم - اكثر مما تتعرض له البلاد الاخرى - للاجهزة الامريكية للاعلان وتسلية الجماهير . وبعبارة موجزة ، فبينما كانت بريطانيا منذ عهد غير بعيد اكثر الدول الاوربية انعزالا وافدحها تباينا طبقيا، اذا بالشعب البريطاني في السنوات الاخيرة يتقدم سراعا من مجتمع بورجوازي الى مجتمع بحبوحة ، وهذا يضفي على الدور الذي يؤديه الشباب البريطاني في هذه العملية اهمية فذة . فلقد كان دورا بالغ النشاط ، ويمكن تبينه في ثلاثة ابواب : تحرر شباب الطبقة العاملة، وازدهار الطبقة المثقفة من الفنيين المتخصصين الشبان، ووصول المثقفين من الشباب الى مركز الصدارة .

ربما كان تحرر شباب الطبقة العاملة اهم تغير اجتماعي حدث في بريطانيا منذ الحرب . ولا بد من ان نتذكر انه بتأثير قسوة الانقلاب الصناعي، بالاضافة الى التراث القمعي الذي مارسته النزعة البيوريتانية ، حل ضرر فادح ، ان لم نقل دمار جزئي ، بالثقافة الشعبية التاريخية في ارجاء كثيرة من الجزر البريطانية في القرن التاسع عشر . فاستؤصلت جذور الطبقات العاملة الصناعية استئصالا تاما ، وصارت طبقة من الاجراء ، وارغمت في اغلب الاحيان على الحياة في احياء الفقر المدقع التي بقي بؤسها حتى في العصور الحديثة. ومنذ عهد غير بعيد ، كان لا يزال بالوسع وصف شباب الطبقة العاملة البريطانية في المدن الصناعية بانهم ينمون وهم مفتقرون تقريبا الى اي تراث شعبي من الآداب او الموسيقى او الرقص ، وبان لهم لهجات عامية فظة في الخطاب يزدريها اهل الطبقة العليا الاجتماعية . كان ذاك هو الماضي : وجاءت البحبوحة الجديدة ، وزيادة الاجور ، والانتقال من الاحياء الفقيرة الى الضواحي ، وادخال الوسائل الآلية على نطاق شامل . فغير هذا كله الصورة تغييرا اخاذا منذ الحرب . واليوم في بريطانيا ، اكثر مما في بقية اوربا ، ثقافة واسعة للشباب مبنية على استهلاك ملابس معينة ، والاسطوانات الشعبية ، وعلى الدراجات الآلية وحياة المقاهي ، وعلى ازدهار مجلات وبرامج اذاعية تلفزيونية خاصة واعلانات موجهة الى الشباب . ان هذا كله قد اصبح الآن ظاهرة عالمية عادية - ولكن ما اود ان انوه به في مسرح الاحداث البريطاني هو استجابات الشبان انفسهم ، او قطاعات منهم .

قد يتذكر البعض عصابات « الفتية المدللين » الذين ظهروا في بريطانيا في مطلع الموجة الجديدة من البحبوحة المادية في الخمسينات . وقد اثاروا بلبلة جمة بازيائهم الغريبة المزركشة ، وحياة العصابات التي انغمروا فيها ، والوان العنف في الطرقات . ومع ذلك فاني اظن ان مبادرتهم لم تفهم حق فهمها . وقد اشرت في دراسة لي عنهم الى اهمية هذه الحقيقة : ان فتية الطبقة العاملة البريطانية ، لاول مرة في تاريخها ، لا ينقلون انماط ازيائهم عن الطبقة الاجتماعية التي فوقهم ، بل يخلقونها لانفسهم خلقا . وبدا لي ان « الفتية المدللين » يمثلون باسلوبهم الخاص تمردا مصغرا آخر ، تمرد فئة كان يجري استعمارها ، ضد الطبقة الاستعمارية الحاكمة : فقد انتصروا لمطلب شباب الطبقة العاملة ، التي كانت مهضومة الحقوق محرومة من التعليم، في ان يحتلوا مكانتهم الشرعية في المجتمع . وهذا ما تبين بالبرهان . ذلك بانه عن المبالغة في ازياء الفتية المدللين انبثق « الطراز الايطالي » الاكثر اعتدالا ، وفي الستينات بدا صبيان فتية الطبقة العاملة البريطانية لاول مرة يرفلون في ثياب انيقة واصبحوا يهتمون بتطور آخر الازياء . وقد تمخض اليوم عن هذا طراز شبيبة « المود » الزاهي الالوان ، ولكن كان بوسعنا ان نرى ، حتى قبل ١٩٦٠ ، تغيرا عميقا في الحياة البريطانية .

وكان واضحا ايضا ان الفتية المدللين - حتى اشدهم ضراوة - كانوا مولعين بالموسيقى الشعبية، وكان هذا الولع ايضا نزعة اجتماعية جديدة في بريطانيا تقدمت كثيرا منذ ذلك الحين . واصبحت الموسيقى الشعبية تجارة دولية كبرى . ومع ذلك فانها تجارة ، يتوجب على اربابها ان يراقبوا دائما

بانتباه استجابات الشباب ؛ ومما هو جدير بالاهتمام ان احدث نزعة نالت نجاحا ساحقا واصبحت الآن هي النزعة العالمية السائدة في الموسيقى الشعبية (ونعني بها تلك التي يمثلها « الخنافس ») قد اتت من مدينة ظلت طويلا تعرف بأن فيها من البطالة والاحياء الفقيرة اكثر مما في اية مدينة اخرى في البلاد ، ألا وهي ليفربول . وليس الخنافس الا طليعة بارزة لعدد كبير من جماعات الموسيقى الشعبية انبثقت تلقائيا ، اولا من حانات ليفربول ثم من المدن الاخرى . وما مبادرتهم ونجاحهم الا علامة على ان تحرر شباب الطبقة العاملة قد مضى مرحلة اخرى الى الامام . وربما كان اروع ما في الامر ان في بريطانيا اليوم حوالي ٠٠٠ه فرقة لهذه الموسيقى – على ما يقال – والكثير منها شغوف بتقليد الخنافس وسائر الفرق المعروفة. ومهما كان رأيك في قيمة موسيقى الخنافس ، فانها ، في بلد مثل بريطانيا درج على ان تؤدي فيه الموسيقى دورا ضئيلا جدا في الحياة ، تؤذن بتغير اساسي .

وفي عالم التعليم العالي ايضا ، تبدو التطورات القريبة العهد ابلغ اثرا في بريطانيا منها في بعض البلدان الاوربية الاخرى . فمنذ عهد غير بعيد ، كان نظام التعليم البريطاني يقف موقفا فريدا في اوربا ، اذ كانت تسيطر عليه مدارس خاصة باهظة النفقات وجامعات ذات موارد خاصة معدة لتخريج صفوة ضئيلة ارستقراطية (او شبيهة بالارستقراطية). اما التعليم اليوم فيتمثل في طلبة وطالبات يتلقون منحا حكومية تسدد نفقات تعليمهم طوال سني دراستهم الجامعية ؛ وفي اي الحالات فان الجامعات بما فيها اكسفورد وكيمبردج تنال الآن اعانات ضخمة من الدولة . كما اتضح بصورة فريدة ان مجتمع البحبوحة ، اليوم والغد، محتاج الى طبقة متوسطة من الفنيين اكبر بكثير مما سبق . وربما كان هذا التغير ابرز ما يكون وضوحا في بريطانيا ، لان نظام التعليم العالي فيها كان محصورا جداً في الماضي . ولكن الصحف في الوقت الحاضر تحمل يوميا صفحات من الاعلانات عن وظائف خالية للخريجين الشبان ، ولا سيما العلماء والمهندسين . وهناك اليوم توسع في التعليم العالي لم يسبق له مثيل ، ويمضي قدما . ففي السنوات القلائل الاخيرة اسست بالفعل سبع جامعات جديدة .

لقد نوه الباحثون ببعض النتائج الاجتماعية لهذا التوسع في التعليم . فقد ناقش سي . بي . سنو في مقاله الشهير عن « الثقافتين » ما كان لآلاف العلماء الشبان المتخرجين من الجامعات من تأثير جديد على التفكير البريطاني . وسجلت روايات كروايات كنغزلي ايمز الصعاب التي يلقاها الشبان وهم يصعدون مدارج الطبقات الاجتماعية على درج من التعليم . واعتقد ان بالوسع ايضا ابداء ملاحظات اخرى قليلة عامة عن الجيل الجديد من الطلبة وصغار الخريجين ، هذه الطبقة الجديدة من المثقفين الفنيين .

فزملاؤهم الاكبر منهم سنا يعتبرونهم جيلا اقرب الى نزعة الشك والروح الواقعية، ويصفونهم بانهم واقعيون بخاصة في علاقاتهم الجنسية ، وبان رؤيتهم للعالم تتأثر باعتبارات كتدهور دور بريطانيا في العالم ، وبشعور ممض في اعماقهم بخطر الحرب النووية . وقد يكونون كذلك ، ولكني اعتقد ان هناك عددا من العوامل الاخرى تضافرت لتجعل اعضاء طبقة الطلبة هذه شاعرة بصورة خاصة بكونها جيلا جدليا تقطعت اسبابه بالماضي. فهناك اولا اثر الزيادة المستمرة في عددهم في حد ذاته ، مما يجعل النمط السابق الذي كان يحدد الوصول الى الجامعة بالمال وليس بالموهبة ، يتراءى لاعين الشباب امرا يتعلق بالماضي السحيق ، وليس بعصر آبائهم هم مباشرة . وهناك ثانيا بين الطلبة اليوم شعور بحاجة المجتمع اليهم ، بالحاجة القومية الواضحة الى مزيد من المدرسين والمهندسين والعلماء والباحثين الاجتماعيين وغيرهم ، وبالاهمية التي يعلقها الشعب على هذه الحالة : وهذا ايضا يجعل هؤلاء الشبان يرون مجتمع الامس ، الذي لم يكن يعبأ بهذه الحاجات ، نائيا سحيقا . ولا شك ان التقدم والتبدل العلمي المطرد (كما يحدث حين يحاول الشبان ان يفهموا كيف ان اشياء مألوفة تماما ، كالنيلون واقلام الحبر الجاف والتلفزيون والمحركات النفاثة ، لم تكن معروفة لآبائهم في شبابهم)يساعد

على تعميق هذا الشعور بالاغتراب عن الماضي وعن الجيل الاكبر سنا .

ولهذه الاسباب المتعددة فاني اشعر احيانا وكأن هذا الجيل يتخذ موقفا حيال الجيل الاكبر منه سنا ، هو اشبه بموقف الكنديين او الاوستراليين ، مثلا، حيال انكلترا: موقفا مركباً من شعور بالاصل المشترك وفي الوقت عينه من شعور بانفصال ثقافي عات قد حدث وتحقق .

وهناك نزعة حديثة هامة ثالثة في بريطانيا ، الا وهي النجاح الاخاذ ، والسريع جدا في اغلب الاحيان ، للمثقفين الشبان بأدق معنى للكلمة ، اي للكتاب والصحفيين والباحثين وغيرهم من المعنيين بتكوين الافكار وبثها .

ويمكن تبين هذه النزعة بوجه خاص في التحولات المثيرة التي جرت في المسرح . وكانت نقطة البدء ، او « الاقتحام » الشهير كما اصبحت تسمى ، هي تأسيس مسرح تجريبي جديد في لندن، مسرح « البلاط الملكي » ، حيث عرضت عام ١٩٥٦ مسرحية « السخط على الماضي » من وضع المؤلف المسرحي جون اوزبورن ، وكان آنذاك في السادسة والعشرين من عمره . وسجلت هذه المسرحية نغمة جديدة : لانها قدمت « بطلا مضادا » ينتمي الى طبقة ادنى ومع ذلك فهو عديم الطبقة ، ولانها قدمت من جديد هجمات بسيطة وانفعالية ذات نزعة يسارية ضد الطبقة الحاكمة البريطانية لم تكن قد سُمعت حينا من الزمن ، ولانه كانت هناك نغمة شعبية في صرخات جيمي بورتر الذي خلقه اوزبورن اثارت استجابة مباشرة لدى المتفرجين الشباب في كافة ارجاء اوربا . فمن الواضح على اية حال ان بابا قد فتح بعنف على مصراعيه . وتلت مسرحيات اوزبورن على خشبة مسرح البلاط الملكي مسرحيات ارنولد ويسكر المتسمة بالنزعة الواقعية الاجتماعية ، وكان هو ايضا في العقد الثالث من عمره متشبعا بالنظرة اليسارية المؤمنة بالشعب. واعقب صعود اوزبورن وويسكر صعود هارولد بينتر ومن اليه من البريطانيين الشبان نظراء يونسكو ومسرح العبث واللامعقول . وجاء المخرجون في اعقاب كتاب المسرحية . فاصبح طوني رتشردسون ، وهو من اكسفورد ، مخرجا لمسرح البلاط الملكي وهو في عقده الثالث من العمر؛ وكان بيتر هول ، من كيمبردج ، في العمر نفسه ايضا حين آلت اليه مقاليد مسرح شيكسبير الملكي في ستراتفورد . وتلت ذلك افلام من قبيل « ليلة السبت وصباح الاحد » ، طفرت هي والمدرسة الجديدة من المسرحيات بممثلين في باكورة عمرهم الى مكانة الصدارة العالمية مباشرة : مثل البرت فيني ، وتوم كورتني ، ورتشرد هاريس ، والان بيتس. وجاء حدث آخر هو « موجة جديدة » من النقد الساخر . فقبل ذلك ببضع سنين قدمت جماعة من الممثلين الشبان الذي لم يتقادم العهد بتخرجهم في جامعة كيمبردج استعراضا ساخرا عن الحياة الاجتماعية والسياسية يسمى «وراء الحافة » . وبقوا يمثلونه في لندن وفي برودوي مدة ثلاث سنين . وفي عام ١٩٦٢ قدمت طائفة اخرى من الممثلين والمؤلفين الشبان خريجي اكسفورد وكيمبردج برنامجا تلفزيونيا ساخرا باسم «ذاك كان الاسبوع الذي كان » ، حقق نجاحا ساحقا في موسم قصير . والآن ، في عام ١٩٦٤ ، نجد استعراضا ساخراً آخر ، انتجه طلبة اكسفورد ، وهو يدور هذه المرة حول عقوبة الاعدام ، وقد انتقل مباشرة الى الوست اند في لندن ، ومن هناك الى برودوي بعد ان سجل نجاحا تجاريا .

ذاك شأن المسرح . وفي المجالات الاخرى يمكن تبين نزعة مماثلة . وبالوسع ان نفهم كيف اتيح لشبان ان يظفروا بسمعة عريضة كمعلقين في وسيلة اعلامية جديدة كالتلفزيون ، ولكن جرى من عهد قريب ايضا ما يشبه ان يكون تغيرا عاما شاملا لصالح الشبان في مناصب التحرير في جرائد الرأي الجدية الاسبوعية والاحدية ، حيث اعتدنا ان تكون التغيرات ابطأ . ويصدق هذا ايضا في مجال الدراسة والبحث العلمي . فهناك مثلا كتاب انطوني سامسون « تشريح بريطانيا » — وهو شهادة قيمة على كفاءة كاتب شاب — وقد حقق نجاحا باهرا في الاقبال عليه. اما كتاب هيو طوماس « الحرب الاهلية الاسبانية » وكتاب اندرو سنكلير « التحريم » ، فقد وصفا بانهما افضل دراستين بريطانيتين حتى الآن في موضوعيهما ،

وقد نشرا وكان مؤلفاهما لا يزالان دون الثلاثين بكثير . وفي السنوات القليلة الاخيرة رأينا ايضا عددا من المؤرخين الشبان يصدرون كتبا عن الحربين العالميتين . ومعظم هذه الدراسات، مؤلفة بغاية الدقة ، ومدعمة بكثير من الوثائق الواقعية ، ولكنها تتميز ايضا بحياد ملحوظ – وكأنما كنا ننتظر جيلا جديدا ليس طرفا معنيا في هذه الاحداث لتحرير سجل امين عنها ، وكان الاوان لهذا قد حل الآن. واعتقد ، بوجه عام ، ان كثيرا من الكتاب والنقاد متوسطي العمر قد عبروا عن قلقهم (او ساورهم ذلك الاحساس على الاقل) لا من هذا الغزو الجماعي لميادين تخصصهم من قبل مثقفين شبان وان كانوا كاملي الاهلية على مايظهر، لا من هذا فحسب ، بل ايضا من الاهتمام البادي الذي يظهره المجتمع بهم (كما يحدث الآن مثلا حين يتلمس مديرو مسارح لندن التجاريون بشغف مواهب الطلبة – وهو موقف لم يكد يكون في الامكان التفكير فيه قبل ذلك ببرهة وجيزة) .

ماذا يكمن وراء هذا الغزو ؟ لقد ذكرت من بين التطورات التي جرت في بريطانيا بعد الحرب امورا كتداعي سلطة الطبقة العليا في السلم الطبقي للمجتمع ، والتحرر الثقافي لشباب الطبقة العاملة ، وتكاثر الطبقة المثقفة الجديدة من الفنيين ، قبل ان اشير الى نجاح المثقفين الشبان في مسرح الاحداث المعاصر . وقد فعلت ذلك لان الفكرة التي اود ان اشير اليها هي ان هذا الانبثاق الثقافي للشباب وثيق الصلة في الحقيقة بالتغيرات الاجتماعية الاوسع مدى، وهو بالفعل مشتق منها .

ويمكن توضيح ذلك بالنظر ثانية الى ما حدث بالفعل في « الاقتحام » في المسرح الانكليزي عام ١٩٥٦ . ففي العقد السالف منذ انتهاء الحرب (عقد التقشف والتقنين في ظل حكومة عمالية) كانت النزعة السائدة تؤثر انوي ورشاقته وت.س. اليوت و كريستوفر فراي ومسرحياتهما المنمقة ؛ اي كان ثمة ايثار لنزعة تحولت بعيدا عن السياسة والحياة العادية ، وكانت تخاطب جمهورا من الخاصة والمثقفين بما فيهم من حنين للماضي . وعلى الضد من ذلك ، كانت المسرحية الجديدة « السخط على الماضي » تكاد تكون مبتذلة ، رغم كل ما اوتي اوزبورن من موهبة خطابية . وادخل اوزبورن في مسرحه حكم اورويل وكيستلر السياسية ، وادخل موضوعات موسيقية شعبية ، وسخر بطله من جميع الادعاءات الثقافية التي للطبقة العليا ، وهكذا: ولم يكن يمكن ان يكون ثمة بون اكبر منه بين ذلك وبين رشاقة اليوت وفراي الشعرية . واذا كان اوزبورن وجمهرة المؤلفين المسرحيين الشبان من « الطبقة الكادحة » الذين اقتفوا اثره قد اصابوا نجاحا مباشرا ، فذلك لان التغيرات الاجتماعية في سني ما بعد الحرب كانت قد خلقت جمهورا جديدا لهم ، جمهورا يملك نظرة مختلفة كل الاختلاف عن نظرة سابقه .

واذا اردنا ان نورد جوهر هذا الاختلاف ، فان بوسعنا ان نقول ان الجمهور الجديد الشاب كان يعارض جميع الافكار المتعلقة بالامتياز والاستئثار الطبقي الثقافي التي كانت متغلغلة من قبل بعمق كبير في الحياة البريطانية . ويحب محللو مجتمع البحبوحة الجديد ان يروه في ضوء الدخل المالي لا الطبقة : وبهذا المعنى فهو مجتمع اكثر ديمقراطية او على الاقل هو مجتمع غير قائم على الاستئثار، وبوسعنا ان نقتبس عبارة « عدم الاستئثار » في وصف النظرة البريطانية الجديدة للحياة . فقبل الخمسينات مثلا ، لم تكد الطبقات العاملة الصناعية تظفر بوجود في الادب والمسرح باعتبارها كائنات انسانية واقعية . اما الآن ، فبفضل تحرر شباب الطبقة العاملة ، اصبحت حياة الطبقة العاملة في المدينة بغتة محل اهتمام جديد ، تجلى في افلام «كمذاق العسل» و «ليلة السبت وصباح الاحد» وفي سلسلة من الافلام المشابهة . وهناك ايضا سوق الشباب التجارية ، حيث كانت النزعات الشعبية المفضلة بصفة رئيسية مختصة بالطبقة العاملة ، ولكن لان هذه السوق في بريطانيا بلغت مداها اتساعا ورخاء ، فان نزعاتها ، سواء في الاسطوانات الشعبية او في الازياء ، فاضت فغمرت كل الطبقات بحيث اصبحنا نرى طلبة اكسفورد وكيمبردج ينتقون ازياءهم من نماذج ظهرت اول ما ظهرت في شوارع الطبقة العاملة . ونتيجة لذلك فان الروائيين الذين اعترفوا بالثقافة الشعبية كحقيقة كبرى وحتمية

لحياة البحبوحة الجديدة ، والذين وقفوا على اسرار هذه الثقافة ، من امثال كنغزلي ايمز ، نالوا قبولا حسنا وجمهورا غفيرا .

وقد ذكرت كيف ان الاعضاء الشبان في الطبقة المثقفة الفنية بعد الحرب ، شعروا من جراء تزايد عددهم في حد ذاته بانهم يؤلفون جيلا جديدا يجابه مشاكل اجتماعية ونفسية جديدة . وكانت احدى نتائج هذا التزايد نسيان موقف الشك العميق حيال كل السياسات والمعتقدات ، الذي ساد ورسخ عام ١٩٣٩ . ورعل الضد من ذلك ازدهرت الافكار السامية واليسارية في اوساط الشبان من جديد ، ووجدت مجالا للتعبير عنها في الادب والمسرح والافلام ، وبوجه خاص في نغمة الكتابة النقدية الساخرة الجديدة في السياسة . ومن ناحية اخرى فان التلفزيون لم يقتصر على توفير فرص جديدة تماما للاتصال بالجماهير : بل ان مجرد وجود جماهير التلفزيون هذه ، التي تشمل طبقات اجتماعية كانت محكمة الانفصال قبل ذلك ، كان في حد ذاته عاملا آخر لتغيير الثقافة البريطانية ، وبطبيعة الحال فان معلقي التلفزيون الشبان الذين نموا بين هذه التطورات وجدوا انفسهما اكثر الفة بها . مغزى هذه النقاط التي اوردتها هو اذاً انه في زمن ما في الخمسينات بلغت بريطانيا نقطة في الانتقال من المجتمع البورجوازي الى مجتمع البحبوحة ، واقتضت هذه انعكاسا ثقافيا لها . وكما ان التقدمات الباهرة الاخيرة في معرفتنا بالفيزياء او علم الاحياء تتيح فرصا وامتيازات للعلماء الشبان ، كذلك يبدو ان التغيرات الاخيرة في بنية مجتمعنا قد خلقت ايضا نظرة جديدة وجوا ثقافيا جديدا يجد شباب الكتاب والمؤلفين المسرحيين ومخرجي الافلام ومن اليهم (وهم انفسهم من هذا المجتمع الجديد) سهولة في عكسه ثقافيا لا يجدها الجيل المتقدم عليهم في السن . وفي هذا السياق نستطيع ان نرى سببا اساسيا لمكانة المثقفين الشبان البارزة في بريطانيا .

ربما كان بوسعنا المضي ابعد من ذلك، لنحاول، مثلا ، تفسير وجود مثل هذا النتاج الممتاز ، في الآونة الحاضرة بالذات ، بقلم شبيبة موهوبين في حقول التاريخ والتحليل الاجتماعي والسياسي. والسؤال الذي يجب طرحه هو ان كانت المقدرة الفنية ، اي تمكن المثقفين الشبان (من مؤرخين وباحثين اجتماعيين) فنيا من اختصاصهم ، لا يتم الحصول عليها اليوم في عهد من الحياة ابكر وبسهولة اكبر مما كان الشأن قبلا . وهنا لا نملك الا ان نعرض بعض الملاحظات والتخمينات . فربما كان السبب مثلا هو ان تكاثر اعداد المثقفين الشبان ، وكذلك احتدام المنافسة بينهم ، يتيح نمواً اسرع . كما ان شبيبة المثقفين اليوم ، بعكس المجتمع البورجوازي الاسبق المعادي للثقافة ، يجدون انفسهم محل طلب متزايد ، ولا سيما في وضعهم الجديد كخبراء . (فليس هناك مثلا الا مائة عالم اجتماعي فحسب متفرغ في بريطانيا باسرها ، ولكنهم قد تم استيعابهم فعلا في شتى مشاريع البحث والاستشارة، العامة منها والخاصة) . وهذان العاملان، احتدام التنافس والثقة المنبثقة عن الشعور بالحاجة اليهم ، قد يتيحان بالفعل مزيدا من الكفاءة وانتحاء مناح من الحياة المهنية في عهد مبكر بين شبيبة المثقفين اليوم .

هذا ، على اي حال ، ما توحي به التجربة البريطانية الاخيرة. وهي توحي ايضاً بانه في مجتمع كمجتمعنا ، مكرس بصراحة للتغير ، يمكن لكل جيل جديد من المثقفين ان يتم استهلاكه بصورة اسرع وان يخلفه جيل تال ، — ولكن تلك مسألة اخرى .